الفصل العاشر

شـــعر الطولونيين

كان للأدب العربى رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه فى زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويعجبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء فى مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذى ازدهر الشعر فى أيامه ازدهارا عظيما ؛ إذ مكنه طول عهده فى البلاد أن يرعى الأدب ويكون مقصد الأدباء .

وقد حدث هذا بعصر نادراً ، لا لقلة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن لقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبنى طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيرا .

١ — فى عهد دولتهم (٢٥٤ — ٢٩٢)

وكان من المنظور أن يرق ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبى والسياسى ؛ كما عرف فضل الكتابة فى خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر فى عهده وهو الأديب الذى يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين فى دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يرعى الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحترى ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرته ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملا يثير الشعر والخيال ،وكاد ما بلغه هذا الزواج من أبهة وإسراف فى مظاهر الترف يفوق المروى فى ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟ ثم تنازع أمراء بنى طولون بعده حتى ذهبت ريحهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقى من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلا من الأبيات فى بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترعى الأدب ، وتجتذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولكنه لم يعدم شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقريزى[١] نقل عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة ، فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد !

وفى هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقى من شعر الميدان قليل وكله فى رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشئوه .

وبقى عندنا شعر متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر فى مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدف أن يكون أقدم ما بقى منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون ببنيان المسجد على جبل يشكر فى صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضا ببنيان المارستان للمرضى .

فقال محمد بن داوود يهجوه ويستثير الناس عليه[٢] :

ألا أيهـا الأغفال إيهـاً تأملوا ... وهل يوقظ الأذهانَ غيرُ التأملِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٧ (٢) الكندى ص ٢١٦

ألم تعلموا أن ابن طولون نقمةٌ تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت عليكم يد العلج السخيف المجهل

فيا ليت مارستانه نيط باسته وما فيه من علج عتل مقلقل
فكم ضجة للناس من خلف ستره تضج إلى قلب عن الله مغفل

فترى في شعره توجيهاً للناس إلى الوالي ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك إذ جعله نقمة شاملة ، وجعل هذه النقمة بما كسبت أيديهم ، واتخذ من إصلاحه ومنشآته النافعة سخرية وموضع هجاء ، فذمه وذم القائمين على مستشفاه ، وأسف في هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا في صرفه عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه مجد في محاربته ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ معقلا لماله وحرمه . وبنى كثيراً من المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم اضطرب أمر أصحابه ، وتوفي في صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود(١) :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصناً يستجن به بالعسف والضرب ، والصناع في تعب
له مراكب فوق النيل راكدةٌ فما سوى القار ، للنظار ، والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت بالشط ممنوعةً من عزة الطلب

---

(١) الكندي ص ٢١٨

فما بناها لغزو الروم محتسبا ... لكن بناها غداة الرَّوْعِ للهرب

وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ، ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كالبيت الأول من هذه الأبيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب بجيش ، فباشر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ[1] :

لله دَرِّىَ إذ أغــدو على فرسى ... إلى الهيـاج ونارُ الحرب تستعِرُ
وفى يدى صارمٌ أفْرِى الرءوسَ به ... فى حدِّه الموتُ لا يُبْقِى ولا يَذَرُ
إن كنتِ سائلةً عنى وعن خبَرى ... فها أنا الليثُ والصَّمْصامةُ الذَّكَرُ
من آل طُولُونَ أصلى إن سألت فما ... فوق لمفتخر بالجـود مفتخَرُ
ورثت مجد أبى عنه ، وورثنى ... مجداً أناف به آباؤه الغـررُ
لو كنتِ شاهدة كَرِّى « بِلِبْدَةَ » إذ ... بالسيفِ أضربُ والهاماتُ تبتدِرُ[2]
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم ... كأنهم حُمُر والليث مقتسر
إذاً لعايَنْتِ مِنِّى ما تسيرُ به ... عَنِّى الأحاديثُ والأنْباءُ والخبرُ

وهو فخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجواد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء فى أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :

فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

---

(١) ص ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوى ... (٢) لبدة : مكان المعركة .

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الوفق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الوفق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة(١) :

طَالَ المدى بابن طولونَ الإمامِ كما	يزهو به الدين ، عن دينٍ وإسلامِ
قادَ الجيوش من الفُسْطاط يقدمها	منه على الهول ماضٍ غيرُ محجامِ
فى جحفل ، للمنايا فى مَقَانِبِه	مكامنٌ بين رايات وأعلامِ
يسمُو به من بنى سَام غَطَارِفةٌ	بِيضٌ ، وسُودٌ أُسودٌ من بنى حامِ
لو أن رُوحَ بنى كُنْداجَ مُعلَقةٌ	بالمشترى لم يَفُتْه ، أو بِبَهْرَامِ
حاط الخلافة والدنيا خليفَتُنا	بصارمٍ من سيوف الله صَمْصَامِ
يا أيها الناس هُبُّوا ناصرينَ له	مع الأمير يَدُمُّهم الخيل فى اللآمِ

وهذا مدح سياسى فى غايته ، فالثناء على الوالى وأعماله ، والدعوة إلى نصرة الخليفة ومن يدافع عنه يحمل فى طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون فى دفاعه عنه :

من مبلغٌ مُضَرَ الشآمِ وما حوت	مصرٌ ومن هو مُتْهِمٌ أو مُنْجِدُ
ما بالكم هِضْتُمْ جَنَاحَ سنانكم	بتَوا كُلٍ من فعلكم لا يُحْمَدُ

(١) الكندى ص ٢٢٧ .

أنَّى، وكيف يطيبُ من أحوالكم[1]، خفض المعيشةِ والإمامُ مقيدُ !
حزان أُفْرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبى وأمى المستضام المفردُ !

وقال منصف[2] بن خليفة الهذلى يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ، وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً[3] :

يا غُرَّةَ الدنيا الذى أفعالُهُ غُرَرٌ بها كل الورى تتعلَّقُ
أنت الأميرُ على الشآم وثغرِها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ
وإليك مصرُ وبَرْقَةٌ وحجَازُها كلٌّ إليك فؤادُه متشَوِّقُ
هتك الخلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لِعْباً، والحسُودُ الأخْرَقُ
أسيافُنَا بيضُ المنونِ فليتها بنَجِيع من خذَل الإمام تُخَلَّقُ[4]
تُمسى وتُصبح ضارباً من دونه بمُهَنَّدٍ منهُ الحتوفُ تَفَرَّقُ

وهو شعر سياسى كسابقه يرمى الشاعر من ورائه إلى بيان فضل ابن طولون على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه فى البلاد التى يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحترى ، قصيدة طويلة فى مدح أحمد بن طولون ومنها[5] :

فأصبحتُ فى بغدادَ لا الظل واسع ولا العيش طل فى غضارته رَطْبُ

---

(١) فى الكندى (يطيب . . . الكم) فأكملتها بما يمكن أن يتم به المعنى .
(٢) فى سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية هناك فى معنى هذه القصيدة :
(٣) الكندى ص ٢٢٨ .
(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .
(٥) ديوان البحترى ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أأمدح عمال الطساسيج راغبا
إليهم ، ولى بالشام مستمتع رغب(١)

وعند أبى العباس لو كان دانيا
نواحى الفناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلاءً نيتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما ينول أو يحبو

ثم يصف الخارجين عليه ويذمهم فيقول :

وكانوا ثمود الحجر حق عليهم وقوع العذاب، والخصى لهم سقب(٢)

وما شك قوم أوقدوا نار فتنة وسرت لهم ، فى أن نارهم تخبو
كأن لم يروا « سيما الطويل » وجمعه وما فعلت فيه وفى جمعه الحرب(٣)
ولو لم يحاجز لؤلؤ بفراره لكان لصدر الرمح فى لؤلؤ ثقب(٤)

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يستر فضائح فعلهم وفاء ، ولم ينهض بغدرهم شغب
أخاف كأنى حامل وزر بعضهم من الذنب أو أنى لبعضهم إلب
وما كان لى ذنب فأخشى جزاءه وعفوك مرجو وإن كان لى ذنب

(١) الطساسيج = النواحى : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذى أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصاهم كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكما على أنطاكية.قتل سنة ٢٦٥ فى معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع فى عطائه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا الهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلُوُّ الجهل ما عدَّ هَيِّناً تَكَبُّدُ سُخْطى واصْطِلاءُ حريقى

ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدَّت إلى عَيْرِ عاهر مَشَابِهَ كابٍ فى الكلاب عريق

لِيَلْبَخَ أو طولون يُعْزَى ، فقد حوت على اثنين : زوجٍ منهما وعشيقِ (١)

وهكذا الشعراء يسرفون فى المدح والهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذَنَة إلى المصيصة ، فأقام بها أياما ، وعرضت له علته التى كان منها حتفه ، فأغذَّ فى السير إلى مصر ، والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب فى الليل إلى الفسطاط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العلة تأتى عليه شيئا فشيئا حتى مات فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتد وجده ، وقال يرثيه (٢) :

إلى الله أشكو أسى عَرانى كوقع الأسَلْ

على رجلٍ أروعٍ يُرَى فيه فضلُ الرَّجُلْ

شهابٌ خبا وَقْدُه وعارضُ غيثٍ أفَلْ

شكت دولتى فقدَه وقد كان زينَ الدوَلْ

إذا أمَّه القاصدُونَ حباهُمْ جميعَ الأمَلْ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته فى الدولة ، وهو

---

(١) يلبخ = كان زوجاً لأم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٣٥٨

أشبه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه فى تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شىء من ذلك .

وقال ابن داود يهجوه بعد موته ويفحش (١) :

عَرِّجْ على اليَحمُومِ فانزل به ... فاسْلَحْ على قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا (٢)

ويخاطب هذا القبر فيقول :

يا حفرةَ النار التى أضرمت ... وظل فيها الرِّجْسُ مدفونا
لا تجعلى لبسةَ جُثْمَانه ... إلا الأفاعِى والثعابينا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان وليا لهم ، ويفسد فى الأرض مثلهم فيقول :

فعزِّ إبليسَ بها أولا ... وعزِّ من بعدُ الشياطينا
وقل لهم : قد كان يكفيكم ... ويهتك المعروف والدينا
ثم مضى غير فقيدٍ ، ولا ... كان حميداً عُمْرَه فينا

وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمره ... سوى نَقْمة للخلق شنعاء صَيْلَمِ
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنةً ... ولم يُسْقَ بالمرجُوس تربُ المقطمِ
ولم تبكه الأرضون ، لكن تبسمت ... سروراً ، ولولا موته لم تبَسَّمِ
يبشره إبليس عند قدومه ... عليه بأحمَى بُقْعَةٍ فى جهنَّمِ
لقد طُهِّر الأرضون من سوء فعله ... ومن وجهه ذاك ، الكريهِ المورَّمِ
فلا سُقِيَتْ أجداثُه صوبَ مُزْنَةٍ ... وأنى وفيها شر أولاد آدمِ !

---

(١) الكندى ص ٢٣١ (٢) اليحموم إسم الجبل الشرقى الذى كان فيه قبره

ولعل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات المنيفة على ابن طولون فى حياته وبعد مماته ، وهى بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات فى صديق له يمدحه ويعاتبه ويطمع فى خيراته(١) :

يا ابن المقفع فى البيا ن ويا إياساً فى الذكاءِ
يا ناظراً فى المشكلا ت المعضلات ، ويا ضيائى
إيها ، جعلت فداك ! فيم طويتنى طى الرداءِ ؟
ورغبت عما كنت تر غب فيه من لطف الإخاء
من بعد أنى كنت عند دك وابن أمك بالسواء
فوحق كفك ، إنها كفٌ كأخلافِ السماء
لأخلينك والهوى ولأصبرن عن اللقاء
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء
ولأصبرن على رقيك فى ذرى درج العلاء
فهناك أجنى ما غرست إليك من ثمر الرجاء

وقال فى مغنية جميلة (٢) :

جاءت بوجه كأنه قمرٌ على قوام كأنه غُصنُ

---

(١) اسمه « حذار » أحيانا . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عده مسئولا عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة فى الغزل أزهقها بالبديع فثقلت به (العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦) .

ترنو بعين إذا تعاينها ... حسبت أن فى جفونها وَسَنُ
حتى إذا ما استوت بمجلسها ... وصار فيه من حسنها وَثَنُ
غنت فلم يبق فىَّ جارحة ... إلا تمنيتُ أنها أذُنُ

وفى هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه المغنية ، ومدح لجمال صوتها ، ودليل على فتنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النغم الجميل أكبر قسط ينعم به الجسد والروح .

ومن شعره فى ثقلاء زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقى وهم خارجون (١) :

زارنى زَوْرٌ ثكلتهم ... وأصيبوا حيثما سلكوا
أكلوا حتى إذا شبعوا ... حملوا الفضل الذى تركوا

وفى سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خمارويه إلى دمشق وهزم إسحاقَ بن كُنْداج ، وتبعه حتى مر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المريمى (٢) يمدحه ، ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أتانا أبو الجيش الأميرُ بيُمْنه ... فشُرِّدَ عنا الجور وافتَقَر العُسْرُ
فإن تك أرض الرقتين به اكتست ... ضياء وإشراقا ، لقد أظلمت مصرُ
فسائل به اسحاقَ إذ سار نحوه ... بجيشٍ كعرض النيل يقدُمهُ النصرُ
تباعدت الأقطار منه كثافةً ... ففى مشرق قطر وفى مشرق قطرُ
فأبْلَسَ إذ قيل الأمير ببَالِسٍ
وأضحى ضعيفَ العَقْدِ إذ عُقِدَ الجِسْرُ (٣)

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .
(٢) المريمى من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خمارويه (المغرب ص ١٠٢) .
(٣) أبلس : يئس وتحير . بالس : بلد بشط الفرات .

ولما رأى الجيشَ ابنُ كُنداجَ مقبلا ... أرته المنايا الُحمرَ أعلامه الحُمْرُ
فــولى شريداً ذا ارتياع كأنه ... بكل بلاد ضائرٌ ماله وكرُ
لئن سَرَّ إسحاقَ النجاة بنفسه ... لقد ساءه في جمعه القتلُ والأسرُ
فلا يُغْبَطن بالعيش من بعد هذه ... فقد كَسَرتْهُ كسرةً مالها جَبْرُ

وافتقار المصر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته بلا تكلف ولا ثقل .

وبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه فلقيه خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن يحيى المريمي[١] :

فتوح الأمير نجومٌ تلوحُ ... فليس تقاس إليها فتوحُ
تسير لها في جميع البلادِ ... ركائب تغدو بهـا وتروحُ
إذا حاد عن أمره حائد ... أتاح له الحتفَ منه مُتيحُ
نصحنا لشر بني ديوُدَدْ ... بتحذيره لو أطيع النصيحُ
ولم يكن الغدر مستقبحا ... وفي الغدر شين وعار قبيحُ
تعاطى نطاحَ كباش الحروب ... فغودر وهو صريع بَطيحُ
لئن كان ولى سليما صحيحا ... فما القلب منه سليم صحيحُ
أباح حمـاه فتى لم يزل ... يحوط حمًى وحمى يستبيح
إذا هو لم يسترح من عدوٍ ... فليسَ إلى لذةٍ يستريح
وإن همَّ بالسير لم يثنه ... سنيحٌ يَمنٌ له أو بريح

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفى البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ؛ وهو تشبيه الفتوح بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحترى :

وقد رأيت جيوش النصر مُنْزَلَةً على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ ثنى بكرته فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته كواكب السعد والطيرَ الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا بالصين من بعدها ، مااستبعد الصينا

ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه فى ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقه ... على أن يحمل إليه فى كل عام مبلغاً .

وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة ٢٨٢ هـ ، وحمل إلى الفسطاط فدفن بها فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة .

ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه فى ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش إلى منبوبه (إمبابه) وعدى النيل ، ثم هزم وأسر وضرب ألف سوط ثم مات بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون بجيش دميانه فى تنيس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث . فانتهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بنى طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بنى طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، فخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام »[١] .

٢ ــ الشعر فى أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :

أحدهما شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم وما كسبوا من نصر مبين .

والثانى شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويثير الأشجان لنكبتهم .

وهو فى الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكر فى أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبيشى يتشفى ويمدح القائد الفاتح[٢] :

الحمـــد لله إقراراً بمـا وهبا ... قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا[٣]

الله أصدقَ هذا الفتح لا كذبٌ ... فسوءُ عاقبـة المثوى لمن كذبا

فتح به فتح الدنيـــا محمدها ... وفتّـح الظـلم والإظلام والـكربا

لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة ... وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١ ، ٢) والكندى ص ٢٤٨ .

(٣) الشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عــــذراء غادره ... فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمــد بن ســـليمان أعزهم ... نفسا ، وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يُرَوْا بشرا ... أضحى عرينهم الخطىّ لا القضبا

أبها عـــلوت على الأيام مرتبة ... أبا على ترى من دونها الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته ... وشيّب الرعب شيبانا وقد رغبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... كأنها من زمان غابر ذهبا
وكم ترى تركوا من جنة أُنُف ... ومن نعيم جنى من غدْرهم غضبا

وكأن هذه القصيدة من وحى أبى تمام فى فتح عمورية . وأظهر ما تجد ذلك الوحى فى القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بمحسنات البديع ، فمن الصفات التى كانت تغلب على الشعر فى هذا العصر ، ثم أرهقته فى العصور التالية .

وقال الحبيشى لأبى على الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئاً لمصرٍ قد فتحت رتاجها ... وقُلّدْتَ ما قلّدْتَه بتحكم
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذى ... تجمع يوم الجمع من كل مُعْلَم
وكنت وشيبانٌ غداة لقيته ... كموسى وفرعون غداةَ المعظم
كَفيتَ الإمام المكتفِى ما ينوبه ... ولم يك يرجوه بكل مُرَجَّم
وما زلت ترمى آل طولون قبلها ... وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبى يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفــــرق الأظعان ... مسرورة بتفــــرق السكان
لم تبد من حُزْن على أربابهــا ... إذ فى الترحل راحـــة الجيران

رحلوا فلا نزلوا بروض مزهر ... وعداهمُ سَبَلُ الغمام الدانى
حرموا صيب المزن أنى يمموا ... وتقسمتهم سطوة الرحمن
ما كان أثقلهم على كتف العلا ... وأكف أيديهم عن الإحسان
ما كان أرذل دولة سعدوا بها ... وأحقها بتهدم الأركان
ما عاشروا نعم الإله بشكرها ... فأتاهم بعقوبة الكفران
ماذا أريحت مصر منه وما يلى ... أرض العراق ، مضى من البهتان !

ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول فى الموضوع ، أو براعة الاستهلال وهى التى تلحظ فى الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبرة ، ولا يخفى الشماتة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم ... فارتع وعُجْ بمرابع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت ... واسرح بزهرة ذلك البستان
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة ... تنبيك كيف تصرف المصران
يا قتل هرون اجتثثت أصولهم ... وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا ... فى جحفل لجب ، ولا غسان
وعدية البطل الكمى وخزرج ... لم ينصرا بأخيهما عدنان
دَفَتْ إلى آل النبوة والهدى ... وتمزقت عن شيعة الشيطان

عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدهم عظيما ، ورخاؤهم عميما ، ونعيمهم موفورا وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصروحهم ممردة ، وجناتهم ناضرة ، ورياضهم عاطرة .

واقرأ بعض ما كتبه صاحب النجوم فى وصف ديارهم وعزهم قال(1) :

ولما ملك خمارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، لئلا يشكل ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئا كثيرا .

وعمل فى هـذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صُوَراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانهـا الأخراص الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

وجعل بين يدى هذا القصر فسقية ملأها زئبقا . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .

طبيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكبيس ، فأنف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً فى خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاعى : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً فى داره المذكورة دارا للسباع ، وعمل فيها بيوتاً ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له « زُرَيْق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً . ورانبه على عادة السباع ، فلا يلتفت إلى غدائه بل ينتظر سماط خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زريق » معها وربض بين يدى خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خمارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ، فإن كان قد نام على سريره ربض بين يدى السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائما ، وإن نام خمارويه قعد قريبا منه وتفطن لمن يدخل أو يقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان فى عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائما ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد الله إنفاذ قضائه فى خمارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً لما كان يصل إلى خمارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلأ شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير .

ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبى هاشم(١) :

قف وقفةً بفناء باب السَّاجِ ... والقصر ذى الشرفات والأبْرَاجِ
وربوعِ قومٍ ازعجُوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيمَا إزعاجِ
كانوا مصابيحاً إذا ظَلِم الدجى ... يسرى بها السارون فى الإدْلاَجِ
وكأنْ وُجوهَهُمُ إذا أبصرتها ... من فضةٍ مصبوغة أو عاجِ
كانوا الثريا لا يُرَامُ حِمَاهُمُ ... فى كل مَلْحمةٍ وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقَى لهم ... عَلَمَاً بكل ثَنِيَّةٍ وفِجَاجِ
وعليهمُ ما عشتُ لا أدَعُ البكا ... مَعْ كل ذى نظرٍ وطرف ساجِ

وقال سعيد القاص(٢) يبكى أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاد والدين والدنيا التى أصيبت جميعا بفقده ، وجعل هـذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار التى شيدها ، وعن دولته التى أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمعه ما بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ ... ولم يجر حتى أسلمَتْهُ يَدُ الصبرِ

(١) الخطط ج ١ ص ٣٢٣ والكندى ٢٥٢ .
(٢) الكندى ص ٢٥٣ . خطط المقريزى ج ١ ص ٣٢٣ .

وباتَ وقيداً للذى خامر الحشَا ... يَبِنُّ كما أنَّ الأسيرُ من الأسرِ (١)
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسًى ... يبيت على جمْرٍ ويُضحِى على جمرِ
تَتَابُع أحداثٍ تَحيَّفْنَ صبرَه ... وغدرٌ من الأيام ، والدهرُ ذو غدْرِ
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهرِ
طوَى زينةَ الدنيا ومصباحَ أهلها ... بفَقْدِ بنى طولون ، والأنجُمِ الزُّهْرِ
فبادوا وأضحَوْا بعد عزٍ ومَنْعَةٍ ... أحاديثَ لا تخفَى على كل ذى حِجْرِ

ثم يبدأ الحديث الخاص ، ويتجه إلى مدح ابن طولون خَلْقاً وخُلُقا بما يليق بأمير عظيم الأفعال ، عالى الهمة فيقول :

وكان أبو العباس أحمدُ ماجدا ... جميلَ المُحَيَّا لا يبيتُ على وِتْرِ
كأن ليالى الدهر كانت ، لحسنها ، ... وإشراقها فى عصره ، ليلةَ القدر
يدل على فضل ابن طولونَ همةٌ ... مُحَلِّقةٌ بين السماكين والغَفْرِ (٢)

ويستشهد بالآثار ، وهى شاهد عدل ، ناطق فى صمته بلسان مبين ، ومنها ذلك المسجد الذى بناه ابن طولون سنة ٢٥٩ عند المكان المسمى تنور فرعون :

فإن كنتَ تبغى شاهداً ذا عدالة ... يخبر عنه بالجلِىِّ من الأمرِ
فبالجبل الغربى خِطَّةِ يَشْكُرٍ ... له مسجدٌ يغنى عن المنطق الهذْرِ
يدل ذوى الألباب أن بناءَهُ ... وبانِيَه لا بالضَّنين ولا الغَمْرِ (٣)
بناه بآجُرٍّ وآس وعَرْعَرٍ ... وبالمَرْمَرَ المسنون والجِصِّ والصخرِ (٤)
بعيدُ مدى الأقطار ، سامٍ بناؤه ... وثيقُ المبانى من عقود ومن جُذْرِ

---

(١) الوقيد والوقود : الحطب وشبهه . (٢) الغفر = ثلاثة أنجم صغار .
(٣) الضنين = الشحيح . الغمر = الخامل الذى لم يجرب الأمور .
(٤) آس = نوع من الشجر . العرعر = شجر السرو . المسنون = المصقول .

فسيحُ الرحاب يَحْسِرُ الطرفُ دونَه رقيقُ النسيم طيب العَرْفِ والنَّشْرِ
وتَنُّورُ فرعونَ الذى فوق قُلَّة على شاهِقٍ عال ، على جبل وعر
بنى مسجداً فيه ، يفوق بناؤه ويهدى به فى الليل ، إن ضل، من يسرى
تخال سَنَا قنديله وضياءَه سُهيلا إذا ما لاح فى الليل للسَّفْرِ

وعينُ معينُ الشرب ، عينُ زكية وغير أُجاج للرُّواة وللطُّهْر
كأن وفود النيل فى جنباتها تروحُ وتغدو بين مَدٍّ إلى جزر
فأرفأها مستنبطاً لمعينها من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
يمر على أرض المعافر كلها وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ولا النيل يرويها ولا جَدْولٌ يجرى

ولا تنس مارستانه واتساعه وَتَوْسِعَة الأرزاق للحَوْل والشهر
وما فيه من قُوَّامِهِ وكُفَاتِه ورِفقُهُمُ بالمعتَفِين ذوى الفقر
فللميت المقبورِ حسنُ جَهازِه وللحىِّ رفقٌ فى علاج وفى جَبْر

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأمُّلاً إلى الحِصْن أو فاعْبُر إليه على الجِسْر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعه من الناس فى بدوِ البلاد ولا حَضْر
مآثرُ لا تبلى وإن بادَ رَبُّها ومجدٌ يُؤَدِّى وارثيه إلى الفخر
لقد ضُمِّنَ القبر المقدَّر ذرعه أجل ، إذا ما قيس ، من قبتى حجْر

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهى عقدهم فتناثرت جواهره .
قال :

وقام أبو الجيش ابنُه بعد موته كما قام ليثُ الغاب فى الأَسَل السُّمْر

أتته المنـايا وهو فى أمن داره فأصبح مسلوباً من النهى والأمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة ! فيالك من نَاب حديدٍ ومن ظُفُر !

وورَّثَ هرونَ ابنَه تاج ماجد كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان « جيشٌ » قبله فى محـله ولـكن جيشاً كان مستنقَصَ العُمْر
فقـام بأمر الملك هرون مدة على نـكدٍ من ضيقِ باعٍ ومن حَصْر
وما زال حتى زال والدهر كاشح عقاربه من كل ناحية تسرى
يُذَكِّرُهمْ لمـا مَضَوْا فتتابعوا كما ارفض سِلكٌ من جُمانٍ ومن شذر

فمن يبك شيئاً ضـاع من بعد أهله افقدُهم فليَبكِ حُزْناً على مصرِ
لِيبكِ بنى طولونَ إذ بَانَ عصرهم فبورِكَ من دَهرٍ وبُورِكَ من عَصْر

وورد كتاب المـكتفى بولاية الحسين بن أحمد الماذرائى على الخراج وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم .

ثورة ابن الخليج :

ولمـا خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد ابن على الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المـكتفى إليهم رجلا يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبى هاشم[١] :

أمـيرَنا يابن البهـاليل الغرر شفيت من عدونا أبى الأغرّ
صدورَنا . وُقيتَ من كل حذَرْ إذ جاء فى الشوك إلينـا والشجر

(١) الـكندى ص ٢٥٩.

فى جَحفَلٍ كوجِ بحْرٍ قد زَخَرْ يتبعه أهل البوادى والحَضَرْ
صبرت إذ لاقيته وما صبرْ فَرَّ فى أسرع من لمح البَصرْ
يقطر منه بوله قطر المطرْ أحدث فوق سرجه وما شَعَرْ
شفيتنا من تُرْكهمْ مع الخزَرْ ثم عفا أميرُنا لما قَدَرْ

وهو رجز سهل بعيد عن التكلف مع قوة عبارته . وتماسك أجزائه ووضوح صورته .

وقال أحمد بن محمد الحبيشى[1] فى أبى الأغر وابن الخليج .

غضبتَ لمصر وما نالها وشرَّدْتَ بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها وأقبلتْ تطلبُ إقبالها
وكادت تؤوِّه شوقاً إليك وتظهرُ بالشوق بلبالها
وما شوقُها كان من طبعها ولكن ربَّك أوحى لها
لقد فرَّج الله كربَ النفوسِ وبلَّغها فيكَ آمالها
ولما رأيناك فى مصرنا منحنا الإمارة إجلالها
وما زلتَ تطلبها همةً وتركب بالسيف أهوالها
وتعلمُ نفسُك أن الأمورَ إمّا عليها وإمّا لها
تمنَّوا لقاكَ فلما رأوكَ رأوا للمنيةِ إظلالَها
وصرُّوا يطيمون فى كل شيء رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العُفاةِ وبحر الثغور التى عالها
به كانت الروم فى أمنها تفزّعُ للذنّبِ أطفالها

(١) الكندى ص ٢٦١ .

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث فى الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذى نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فاتك المعتضدى إليه ، ومسير دميانة فى المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحمامى بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار فى ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فاتكا فضلوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له (تريك) .

قال سعيد القاص لبدر الحمامى[1] :

حالت معارفهم إلى إنكارِ ... وغدا الخميس لهم بيومِ بوارِ
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا ... وتلاعنوا فيها كأهل النار[2]
وأتوكَ بين مُعذِّرٍ فى عذرِهِ ... خجلٍ وبين مصرِّح الإقرار
وتزعزعت تلك الرماح فصورت ... ركن القطم فى حفيرٍ هارِ
طلعت نجومٌ فى الرِّماح بروجها ... فسقطن إذ طلعت نجوم قُدار
لما انجلى ذاك الغبار رأيتهم ... صرعى وقد لبسوا بريم غبارِ
فاسعد بنصر الله والفتح الذى ... عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشرى والحسين بن أحمد الماذرائى ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها فى ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام متنزيا ٧ أشهر و ٢٠ يوماً .

ودخل فاتك الفسطاط فى عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

(١) شرحه ص ٢٦١
(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « ص » « إن ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس فى الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليج فى ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليج وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .

ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء فى هدمه فى شهر رمضان سنة ٢٩٣ وبيعت أنقاضه ودثر كأنه لم يكن .

وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر فى الشعر العربى لأول مرة قصائد متعددة فى آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد فى معانيه ، محزن فى نغماته ، متنوع فى ألحانه وزفراته .

قال محمد بن طشويه :[1]

من لم يَرَ الهدم للميدان لم يَرَهُ ... تبارك الله ما أعلاه وأقدرَهُ[2]
لو أن عين الذى أنشاه تبصره ... والحادثات تعاديه ، لأَكبَرَهُ
كانت عيون الورى تعشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به ... وأين من كان بالإتقان دَبَّرَهُ
وأين من كان يحميه ويحرسه ... من كل ليث يهابُ الليثُ منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فدَعْثَرَهُ
وأخلق الدهر منه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصران أسطرَه
دُكَّت مناظره واجتث جوسقه ... كأنما الخسفُ فاجاه فدَمَّرَه
أو هبَّ إعصارُ نارٍ فى جوانبه ... فعاد معروفُه للعين منكره
كم كان يؤوى إليه فى مقاصره ... أحوى أغن غضيض الطرف أحورَه
كم كان فيه لهم من مشربٍ غدقٍ ... فجب طرفَ الردى فيه فكدَّرَهُ

(١) الكندى ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليستقيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه ... أماته الملكُ الأعلى فـأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر ... طوبي لمن خصّه رُشد فذكره!

وقال أحمد بن إسحاق الحكر(١) :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهـر تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البثّ والهموم وأنوا ... عاً توالت به من الأشجان
يعلم العالم المبصر أن الدهـر فيما تراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عيـ ... ـش رخى ونضرة وجنان
أين ذاك المسك الذى ذيف بالعنـ ... ـبر بحتاً وعُلّ بالزعفران
أين ذاك الخز المضاعف والـ ... وشى وما استجلبوا من الكتان
أين تلك القيان تشدو على الـ ... فرش بما استحسنوا من الألحان
دوّر الدهر آل طولون فى هـوّة قفر مسكونُها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليـه ذئاباً تعوى بتلك المغانى

وقال سعيد القاص(٢) :

وكأن الميدان ثكلى أصيبتْ ... بحبيبٍ صباح ليلة عرس
تتغشى الرياح منه محلا ... كان للصون فى ستور الدمقس
ولفرشِ الإضريح والبُسطِ الديـ ... ـباج فى نعمة وفى لين مَسّ
ووجوه من الوجوه حسان ... وخدود مثل اللآلئ مُلس
كل كحلاء كالغزال ونجلا ... ء رداح من بين حور ولُعْس

(١) روى هذا الشعر فى الخطط جـ ١ ص ٣٢٥ منسوبا إلى أحمد بن إسحاق الجفر . وهو شاعر نحوى مصرى ترجم له ياقوت باختصار فى معجم الأدباء جـ٢ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١
(٢) الكندى ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأر ض فأضحى الجديد أهدام لُبس

وكأنه يقتفى آثار البحترى فى إيوان كسرى بحراً وقافية وعبارات . ولا شك أن سينية البحترى هى التى أوحت إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم[1] :

يا منزلا لبنى طولون قد دثرا سقاك سوب الغوادى القطر والمطرا

يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .

حرب مع المغرب :

وكانت المغرب ثائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك إلى والى مصر ، أبى منصور تكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه « حباسة » قاد المغاربة إلى اسكندرية فدخلها في سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سيما إلى مصر مددا لتكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تدبيرها ، وقدم معهما أحمد بن كيغلغ .

وسار حباسة إلى مشتول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو[2] :

ألا شقّ جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاحٍ فيك للعذل مطمعا

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٢٥

(٢) الكندى ص ٢٧١

لما دهى الإسلام من فجع حادث   تهم له أركانه أن تضعضعا
لمصرع إخوان على الدين صُرّعوا   لنصرة دين الله ، يالك مَصرعا !
فماتوا كراما ما استضيموا ، أعزّةً   يلاقون فى الله الأسنة شُرّعا
ألم ترهم يوم الخميس وقد غدا   عدوّهمُ فيمن أعدّ وجمعا
وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم   فجاءوا سراعا حاسرين ودُرّعا
فصادمهم فى الناكثين فأبدءوا   وكان حُماةَ الدين أعلى وأمنعا
فولى بخزى طوقته كتامةٌ   وقد سُقيت كأساً من الموت مُترعا
ألوف أباد القتلُ جمّ عديدهم   فأمسوا طعاماً للكلاب ومرتعا
ترى القوم صرعى فى الخلاف جواثما   كأعجاز نخل بالبقيع تقلعا
وطيف بهام الفاسقين على القنا   وبضّع من لحماتهم ما تبضعا
وكانت لحزب الكفر إذ ذاك عطفة   فقتل من أشياعنا من تسرعا
فصلى على تلك النفوس مليكها   وعوضها أبقى ثواب وأنفعا

وليس من شك فى أن هذا الشعر قيل بعد الموقعة بقليل ، كما يدل على ذلك تعيين يوم الخميس ، وندرك أنه شعر يختلف عما سبقه من شعر الحوادث ، فهو شعر دينى حماسى . شعر يخشى أن يتصدع الإسلام لمصرع من ماتوا فى الدفاع عنه ، و يصف أعداءهم بالفسق والخروج على الدين وأنهم حزب الكفر ، وانظر إلى ما فيه من إنصاف اقتضى أن يصف ما فعله أعداؤه بأشياعه ، وترحم على من قتل من رجاله ، وسأل الله لهم حسن الثواب .